الشيخوخة والقلق
في شعر غازي القصيبي

د. هدى عبدالرحمن الدريس
أستاذة الأدب الحديث والنقد
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله الذي لايؤدّى شكر نعمته إلا بنعمة منه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

يمثل غازي عبد الرحمن القصيبي جزءا من حركة الشعر في الوطن العربي، في مراحله المختلفة، ومدارسه المتعددة، وهو شاعر ملتزم استطاع أن يزاوج بين وجدانه وواقعه الذي يعيش فيه.

ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على جانب من جوانب تجربته الشعرية، وهو الإحساس بوطأة الزمن، والقلق من تقدمه في السن، وسيحاول هذا البحث استقراء شعره في هذا الجانب، والكشف عن دلالاته الفنية والموضوعية والوقوف على صنيع الشاعر في تجسيد تجربته، وإيصالها للمتلقي، وقد وسم بعنوان: (الشيخوخة والقلق في شعر غازي القصيبي).

أسأل الله -عز وجل- التسديد، والتوفيق، والفتح المبين.

الشيخوخة[1] والقلق[2] في شعر غازي القصيبي[3]

١- الشيخوخة: الشيخ من استبانت فيه السنّ، وهي من خمسين إلى آخر العمر، ينظر: الفيروز بادي، القاموس المحيط، تحقيق: أنس الشامي وزكريّا أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط١ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨، ص٩٠٤.

٢- ()القلق: هو الانزَعاج، يُقال بات قلقاً، وأقلقه غيره، وأقلق الشيء من مكانه، وقلّقه: حرّكة، والقلقلايستقرّ في مكان واحد.. والقلق المضطرب، وهو حالة انفعالية تتميّز بالخوف مما قد يحدث في المستَقبَل، وهو شعور يُفقدُ صاحبه الراحَة، وعادة متأصلة في الإنسان، فمعظم الناس ينتسابهم القلق يومياً.

يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت - مج ١٠، ص٢٢٣- ٢٢٤ / وكذلك: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي: الصحاح في اللغة والعلوم - معجم وسيط- دار الحضارة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٥م ص ٦٠ / وكذلك مؤسسة سجلّ العرب، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة إبراهيم أبو النجا وآخرون، ط١، ج٨، ص١١٩٨ / وكذلك: د. روبرت أل ليهي، علاج القلق، ترجمة: مكتبة جرير، الرياض، ط١، ٢٠٠٨م: ص١١

٣- ()شاعر سعودي وُلد في الأحساء في المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٠م، وتلقى دراسته الابتدائية والمتوسطة في البحرين، حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة لندن، تقلّد عدداً من المناصب الكبيرة في المملكة العربية السعودية، منها عميداً لكلية التجارة في جامعة الملك سعود، ووزيراً للصناعة والكهرباء، ووزيراً للصحة، وسفيراً لبلاده في البحرين، ثم سفيراً في بريطانيا، وقد استطاع أن يحتلّ مكانة بارزة بين نجوم الفكر والشعر والأدب في العالم العربي، له مجموعات شعرية ومؤلفات كثيرة منها: أشعار من جزائر اللؤلؤ - حديقة الغروب - ورود على ضفائر سناء، مرثية فارس سابق - سحيم - المواسم - سيرة شعرية - الحمى - أنت الرياض...

يُنظر في ترجمته: محمد أحمد الدوغان، السيرة الشعرية لغازي القصيبي بين الرؤية والآداء، العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٧ وما بعدها، وكذلك: غازي القصيبي، استجوابات، العبيكان - الرياض، ط٢، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م، ص٩ وما بعدها.

المقدمة

الحمد لله الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، الذي لا تدركه العيون، ولا تبلغه الظنون، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله، وصحبه، وخلفائه، وورثته، ، وبعد:

فيمتلك كثير من الناس حسّاً مرهفاً لأحداث الماضي، واحتمالات المستقبل، فتكون بعض مراحل الحياة عندهم كالمراهقة والشيخوخة مفعمة ببواعث القلق... إذ تجلب تغييرات تبعث على الضيق، وتحدّد الجهد.[٤]

ومن بوادر الشيخوخة أن الذات تسعى إلى إعادة بنائها في حالٍ من البوح والمساءلة، وقد كان غازي القصيبي سريع الترجيع في هذه القضيّة، يبوح بمشاعره وقلقه من تقدّم عمره، وتسارع الزمن، إذ يقول: [هي صدمة الشيخوخة جاءت بعد ربع قرن من الصدمة الأولى، صدمة منتصف العمر[٥]، كنت تحسّ بشيء في النفس، شيء غامض، شيء أسيف كئيب تحسّه في نفسك...][٦]

ويقف الشاعر غازي القصيبي كثيراً عند هذه المرحلة من حياته ؛ يجسّد لنا ذلك الشيء الغامض الكئيب الذي يحسّه، إنه القلق من تقدم العمر، والخوف من هاجس الموت، والضعف والوهن، ونضوب نهر العطاء. ومن هذا المنطلق، تراءت فكرة هذا البحث في الذّهن، فرأيتها ظاهرة تستحق إلقاء الضوء عليها

٤- ينظر: عبد الله الجعيثين، الهم والقلق وأفضل السبل للخلاص منهما، مرامر للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص٦١.

٥- مرحلة أواسط العمر للإنسان المعاصر بين (٢٦ - ٥٠) سنة، وتبدأ أزمة منتصف العمر في الأربعين تقريباً، بداية مرحلة الكهولة، إذ تظهر على الإنسان تغييرات توحي بتقدمه في العمر، وتجاوز مرحلة الشباب،
ينظر / عبد الحميد الهاشمي، علم النفس التكويني، أسسه من الولادة إلى الشيخوخة، دار الهدى، الرياض، ط٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ص٣٠٠ / عمر المفدى، علم النفس والمراحل العمرية، النمو من الحمل إلى الشيخوخة والهرم، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ، ص٤٢٣.

٦- غازي القصيبي، المواسم، دامة للدراسات والنشر، جدة، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٧-٨

دِلالياً وفنيًّا، وذلك للأسباب الآتية:

١- حالة القلق من الشيخوخة تمثّل ظاهرة بارزة في تجربة غازي القصيبي الشعرية.

٢- هذه الظاهرة بدأت بواكيرها في شعره قبل بلوغه مرحلتها بزمن طويل، فمنذ أن بلغ مرحلة الأشدّ، وهو يتوجس قلقاً وخيفة من الشيخوخة.

٣- هذه الظاهرة في شعره مع بروزها واضحة جليّة إلا أنها لم تظفر بدراسة مستقلّة تكشف عن أبعادها النفسية في حياة الشاعر، وتلقي الضوء على صنيع الشاعر الفنّي في تجسيد تجربته الشعرية وموقفه من الشيخوخة.

وسيكون منهجي في الدراسة، قائماً على قراءة النصوص الشعرية، التي تبرز فيها هذه الظاهرة، ومن ثم تحليلها واستقراء دلالتها الموضوعية والفنية.

وقد رأيت أن يسير البحث وفق الخطة الآتية: -

عنوان البحث: الشيخوخة والقلق في شعر غازي القصيبي.

المقدمة: وفيها تعريف بالموضوع وأسباب اختياره.

المبحث الأول: البوح والإحساس بالذات.

المبحث الثاني: الشعور بالوحدة والفراق،

المبحث الثالث: الهروب النفسي وفيه مسألتان:

أ- النزوع للماضي المشرق.

ب- استدعاء المكان القديم.

المبحث الأول

البوح والشعور بالذات:

من يستقرئ شعر غازي القصيبي، ير بشكل واضح أنه يبوح بمشاعره وقلقه من تقدّمه في السنّ، وذلك في مراحل عمرية مبكّرة سابقة لسنّ الشيخوخة بكثير، وقد أكّد ذلك صراحة عندما سأله أحدهم: تخاف من العمر ؟ فقال: [أشعر بوطأته بشكل غريب وَمَرضِي، والأصدقاء الذين في سنّي من غير الشعراء يتضايقون من ذلك، يذكّرونني أنني مثلُهم، ولكنّهم يكبرون من غير شكوى، لماذا لا أسكت وأُريحهم ؟! شعوري بمرور الوقت يتجاوز شعور الإنسان العادي..][٧]

ويقول في موطن آخر: [أنا الآن في منتصف الخمسينيات، وقد دنت ساعة التقاعد الطبعي، سنرى إذ ذاك إن كانت في العمر بقيّة ؟ هل ستدور العجلة بسرعة أكبر؟ أم أنّها ستُصابُ بالإعياء والفتور... ؟!][٨]

ويعلن هذا القلق من مرور السنين صراحة في قوله[٩]:

تمرُّ فوق سنين العمر أفئدةٌ ظمأى يُعشعِشُ فيها الشعر والقلقُ
وننتهي وتدور الأرض دورتها وننتهي ويعودُ الفجرُ والغسقُ

وها هوذا يبوحُ بهذا الهاجس القَلِق في قصة ابنته يارا مع شعراته البيض التي بدأت تظهر في رأسه[١٠]:

مالتْ على الشعرات البيض تقطفها يارا وتضحك: لاأرضى لك الكبرا

٧- غازي القصيبي، سيرة شعرية، ص٣٥٤.
٨- السابق نفسه: ص٣٤٣
٩- غازي القصيبي، المجموعة الشعرية الكاملة، تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م: ص٣٥٧ - ٣٥٨.
١٠- السابق نفسه: ص٦٩٥ - ٦٩٦

ففي ضوء موقف «يارا» من شيب أبيها يتجسّد قلق الذات من الشيخوخة وتبعاتها، ورفضها رفضاً تامّاً: [لا أرضى لك الكِبَرا].

ويسترسل الشاعر مع صغيرته والشيب، لتفصح لنا الذات عن نفسها بقوة، فالقضية ليست مجرّد شعرات بيض يمكن إخفاؤها، واقتلاعها، إنّما القضية أربعون عاماً تحاصر الشاعر بأسلحتها الفتاكة، لتسلب منه ربيع حياته، وتقضي على أحلامه، وتجرّه إلى هاوية الضعف والخور في غمضة عين[١١]:

يا دميتي هبكِ طاردتِ المشيب هنا ... فمااحتيالك في الشيب الذي استترا؟!
وما احتيالك في الروح التي تعبت ... وما احتيالك في القلب الذي انفطرا
يا دميتي حاصرتني الأربعون مدى ... مجنونة.. وحراباً أدمت العمرا

ويستشعر المتأمّل في تجربة القصيبي مع الشيخوخة احتدام أزمة الذات، وإحساسها الحادّ بوطأة السنين ومرورها السريع، فما إن وقف على أعتاب الأربعين حتى بدأ الخوف يدبّ إلى نفسه، ويفسد عليه نعيم عيشه[١٢]:

عدت كهلاً تجره الأربعون ... فأجيبي أين الصّباوالفتون ؟!
عدتُ والشيب بارقٌ عبر فَوْدي ... وعلى مُقلتيّ غيمُ هتون

وتشير دلالة الفعل: [تجرّه] إلى ذلك الهم الذي أثقل كاهل الشاعر، وجثم على صدره فأخذ يجره قسراً من ربيع العمر إلى خريفه.

ويلتفت الشاعر إلى زوجته، وقد ضاق ذرعاً بذلك الهم الثقيل، يرتمي في أحضانها، ويبثّ إليها همومه وأشجانه[١٣]:

١١- السابق نفسه: ص٦٩٥ - ٦٩٦
١٢- السابق نفسه: ٦٨١ - ٦٨٢
١٣- السابق نفسه: ص ٣٦٣

يـا أعــزّ الـنـسـاء هـمّـي ثـقـيـل هـل بـعـيـنـيـك مـرتـعُ ومـقـيـلُ ؟
هـل بعينيك حين آوي لعينيك مـــروج خـضـر وظـل ظـلـيـلُ ؟
هـل بـعـيـنـيـك بـعـد زمجـرة القفر غـديـر وخـيـمـة ونـخـيـل ؟
يـا أعــزّ الـنـسـاء جئتك جوعان طـعـامـي كـآبـة وذ هـــولُ
يا أعزّ النساء: أين مضى الطفلُ؟: وأيـــن ابـتـسـامـه المـعـسـولُ ؟
كـــبرُ الـطـفـل شـيـبـتـه لـيـالـيـه وعَّـرتـه مـن صـبـاه الـفـصـولُ
قبضة الأربعين تهصرُ روحي فأحاسيسي العذارى كهولُ

يكشف النداء في الأبيات عن إحساس الذات بالمعاناة والحزن، وحاجتها لمن يخرجها من أزمتها[١٤]: وتأتي الاستفهامات المتتابعة لتعكس قلق الذات وحيرتها واضطرابها، ورغبتها الملحَّة في تجاوز الواقع المرير، فهي تبحث عمّن تبوح له بإحساسها المرير من سطوة الزمن وقسوة الأربعين التي تهصر روحه.

وكثيراً ما نجد جوّ الحزن والخوف من تقدّم العمر، يطرق أبواب الشاعر، ليصيبه بالقلق، ويُفسد عليه متعة الحياة:[١٥]

وهـــا أنـــذا أمـــام الأربـعـيـنِ يـكـادُ يـــؤودني حـمـل الـسـنـيـنِ
وتـنـأى الـواحـة الخـضـراء عـنّـي كـمـا تـنـأى الـسـعـادة عـن ظنوني
أطـالـعُ في المـــودّع مـن شبابي كـمـا نـظـر الـغـريـق إلى الـسـفـينِ
وأرتـقـبُ الخـبـيء مـن الأمـاسـي بـذعـر الـطـفـل مـن غـده الـخـؤونِ
ويرمقني المصير.. ورُبّ حتفٍ يـــروعُ وفـيـه تحـريـر الـسـجـينِ

ويجسّد هذا النصّ تجربة الذات المهمومة، المذعورة من المصير الحتمي

١٤- ينظر: فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، منشأة المعارف، الاسكندرية ط١، (دت): ص٢٨٣.
١٥- غازي القصيبي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص٦٥٥

لكل كائن حي؛ فقد حشد فيه الشاعر ألفاظاً محمّلة بدلالات شعورية تكشف عن ذلك المغزى:

[يؤودني - حمل السنين - ذعر الطفل - ارتقب - المصير - الحتف - يرمقني..]، لنقف على حقيقة واضحة تجعل القصيبي يقلق من تقدّم عمره ؛ إنه هاجس الموت، الذي يتلقّفهُ يمنة ويسرة، ويتكرّر هذا المشهد كثيراً في شعره ؛ فها هوذا خريف العمر يطلُّ عليه بوجهٍ مكفهرّ، يسأله عن موعد رحيله وكأنه قد ضاق ذرعاً به:[١٦]

واليوم جاء الخريف الفظّ يسألني متى رحيلك كم تنوي البقاء هنا؟!
وأقبلتْ من وراء الشّيب هامسة مدائن الغيب: هيّا فاللقاء دنا

إنّ الذات في هذه اللوحة تبدو قلقة من فكرة الموت، ويحاصرها هذا الإحساس حصاراً عنيفاً؛ فقد أقبلت إليه مدائن الغيب تحثُّ الخطا بعد المشيب، تهمس في أذنه بقرب الرحيل؛ وتعمّق كلمة: [هامسة] صورة هذا القلق الذي يحسه الشاعر؛ فهذا الهمس في أذنه له دوالّ كثيرة، منها أنه يسمع صوت الموت في كل لحظة، وهذا هو حال الذي يصيبه القلق من أمر ما، وتوحي أيضاً بأنه المقصود وحده بهذا الصوت الهامس، لا يسمعه غيره، لذا فهو خائف يترقب هذا المصير بعد شيخوخته في كل لحظة.

ويجسّد الشاعر أزمة الذات، التي تبدّل حالها، وتحوّل زمانها على أعتاب الأربعين؛ فانتقلت من زمان ينبض بالجمال والدفء والحيوية والعطاء، إلى زمان يضجّ بالجفاف والآلام وعدم الاستقرار، فيلتفت الشاعر إلى مظاهر الحياة من حوله ليربط بينها وبين وجدانه، وبما أنه شاعر فقد تأثّرت لوازمه الخاصة بتحولاته الوجدانية[١٧]:

١٦- السابق نفسه: ص٨٠١
١٧- السابق نفسه: ص٨٠٢

والأربعون عويلُ ملّ أوردتي ... وفي شفاهي تبكي الصيف واللبنا
أمّا الحسانُ فأوراق مبعثرة ... تطير في الريح لاتدري لها وطنا
أمّا الأماسي فأوهام أجرّعها ... كما تجرّعني الويلات والمحنا
أمّا الغواني فلا سكر ولا قدحُ ... فيالشقوة كرم جفّ دون جنى
مات الصبي الذي قد كان يسكنني ... وكنتُ أسكّنه والكائنات لنا
مات الصبي فلا شعر ولا فرح ... ليولدُ الكهل دنياه أسًى وونى

إنها أبيات تحفل بالإيماءات والرموز الدالة على الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر، إنه واقع محاصر بالجفاف والفتور وعدم الاستقرار ؛ فألفاظه الحسان لم تعد تجد لها وطناً يؤويها.

ومساءاته الرائقة التي كانت تلهمه قول الشعر، أصبحت تجرّعه الأوهام والقلق والويلات.

وقد استطاع الإيقاع الصوتي للفعل [أُجَرّع - وتجرّعني] أن يجسّد لنا أزمة الذات وقت المساء، ذلك الزمن الأثيري لدى الشاعر الذي يخلوفيه مع نفسه برفقة ألفاظه وقوافيه ينظم الشعر، وينضّدُ القوافي[١٨]؛ إذ تغيرّ حاله، فأصبحت تتقاذفه الهموم، ويسيطر عليه القلق، ولم تعُد تسعفه القوافي الثملة التي تسقيه أعذب الشعر وأطربه؛ فقد جفّت منابعها، وأصبحت خاوية على عروشها.

إنه جفاف الشيخوخة الذي يترقبّه الشاعر، ويبث في نفسه حالة من القلق تجسّد ضعفه، وعجزه أمام سطوة الزمن، الذي بدأ يوجه إليه سهامه ؛ لينقله من حالٍ إلى حال، ومن زمن إلى زمن.

وقد يسيطر عليه هذا القلق، ويحاصر مخيلته حصاراً عنيفاً، ويقتحم حياته

١٨- ينظر، غازي القصيبي، استجوابات، ص٨٩

بقوة، فيقف أمام الدنيا يائسًا يطلب منها أن تمنحه الموت والكفن، بعد أن منحها عمره وشبابه[١٩]:

أريـدُ أن تمنحيني المـوت والكفنا فقد منحتك عمري والشباب أنـا

ومن تداعيات الإفراط في القلق، نجد الشاعر يكتنفه إحساس فظيع بالذنب تجاه مَنْ حوله، إذ كان يتملّكه شعور قوي بأنّه أتعب من حوله، وأقلقهم بكثرة شكواه من وطأة السنّ، ونراه في خضمّ ذلك يحاول إقناع نفسه جاهداً لكي تستسلم للواقع الذي يعيشه، والتغيير المفاجئ الذي طرأ على حياته، محاولة منه لتجاوز ذلك الواقع المرير:[٢٠]

يا أيُّها الكهلُ أزعجت الـورى أفلا أغمضت جفنك من حين إلى حين
يـاأيـهـا الـكـهـلُ أيـام الصّباهربت هـل كنت تحسبها بعض المساجين
يا أيُّـهـا الكهلُ في المـرآة لو نظرت عيناك أبـصـرتَ إخـفـاق المعاجين
يـاأيـهـا الـكـهـلُ لا تحـلـم بفـاتـنة حلم الصحارى بحقل من رياحين

وبما أن التكرار يزيد الشيء المكرّر تميزاً عن غيره[٢١]، لأن المتكلّم لا يكرّر إلا ما يثير اهتماماً عنده، ويريد أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه[٢٢]؛ فإن الشاعر بتكرار عبارة: [يا أيها الكهلُ] أربع مرات متتالية يجسّد لنا انفعاله النفسي والوجداني، ويؤكد أن قضية: (تقدم سنه) تشغل باله وتسيطر على وجدانه وانفعالاته، ويحاول جاهداً أن يخفّف من حدة هذا القلق فنراه يحدث نفسه حديثاً منطقياً كي يردعها

١٩- غازي القصيبي، المجموعة الشعرية الكاملة ص٨٠٠
٢٠- غازي القصيبي، قصيدة بصوت الشاعر على الشبكة العنكبوتية، على موقع البوتيوب .http: / / www youtup.com / watch?v=Gx٩PAMrlguk
٢١- ينظر: د. يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٤٨م: ص٤١٩.
٢٢- د. عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثر، دار المطبعة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م: ص١٣٧

عن هذا القلق الذي أتعبها وأتعب من حولها، فهو أمام واقع لا مفرّ منه ؛ واقع تجسّده صوره وألفاظه، فأيام الصّبا قد فارقت ساحته، ويأتي الفعل [هربت] ليؤكد أن هذه الأيام فرّت مذعورة فزعة من التحوّلات التي طرأت عليه مع تقدم سنّه، ولا أمل في عودتها من جديد ومن أبرز تلك التحولات الواضحة للعيان ظهور التجاعيد؛ أول دليل حسي على تحوّله من زمن إلى زمن.

إنه واقع الشيخوخة الذي يقف حاجزاً أمام الشاعر يمنعه من الانطلاق بأحلامه الجامحة؛ فيجعله مسلوب الإرادة، وسط جوٍّ مفعم بالجفاف والضعف والفتور، لتتحول تلك الأحلام إلى أمور مستحيلة، يصعب عليه تحقيقها مع جفاف الشيخوخة.

وتبرز هنا قضية أخرى تكشف اللثام عن أحد الأسباب التي تُقلق الشاعر من الشيخوخة، وهي خوفه أن يكون وحيداً غريباً تتقاذفه هموم الوحدة [لا تحلم بفاتنة]. لأن حياته ستصبح قاحلة عن العطاء، بعيدة عن الجمال، فهي كالصحراء الجافة المنبوذة التي ليس فيها مكان للإنبات والإزهار.

لقد ظلّ الشاعر خائفاً متوجساً من تقدّم سنّه، يحسّ أن الأيام تمضي سراعاً كلمح البصر:[٢٣]

الأربعون أقلعت ... كزورقٍ منكسرِ
وهذه الخمسون ترنو ... كالخريف الحذرِ
قولي لها: تمهلي ... ببابه وانتظري
قولي لها: لديه ... بعدُ كتب لم تنشرَ
قصائدُ ما نُظمت ... عن جُزُرٍ لم تُعبَرِ

٢٣- غازي القصيبي، ديوان ورود على ضفائر سناء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م، ص٣١

إن المتأمّل في تجربة القصيبي، وموقفه من الشيخوخة، يرى أنه كان يخاف ممّا يُحدثه تقدّم العمر من تغيرات جذرية في حياة البشر، حسيًّا مثل ظهور الشيب وغيره من لوازم الشيخوخة[٢٤]:

خمسون دبّت إلى الفودين فاشتعلا واحرقة الرأس فيه الشيب والصلع

أو التغييرات المعنوية والنفسية، مثل الإصابة بالضعف والخور والوحدة، وهذا الانفعال النفسي ردة فعل طبعية تصدر من إنسان تميّزت حياته بالعمل الدؤوب، والعطاء المتميّز غير المحدود في شبابه[٢٥]:

لم تعُد ثَمَّ شعلة من حماسٍ سُكب الزيتُ واستراح القتيلُ

المبحث الثاني

الشعور بالوحدة والفراق:

تتميز الحياة الاجتماعية للشيوخ بفراغ يتخلل حياتهم، وذلك نتيجة حتمية لتفرق أولادهم في شؤون الحياة، وينعكس هذا الفراغ سلباً على الشيخ، إذ يحس بالوحدة والغربة وهو في مجتمعه وأسرته، ومما يزيد إحساسه بهذه الغربة، وذلك الفراغ، تفرق أصدقائه في الشباب، وزملائه في محيط العمل أو موت بعضهم[٢٦].

كان غازي القصيبي يستشعر غربته، ويحس بالألم والجزع من رحيل أحبته، وبقائه وحيداً يكابد الآلام والملل، ويزداد هذا الإحساس عمقاً وألماً في نفسه كلما

٢٤- غازي القصيبي، ديوان عقد من الحجارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١١م، ص٢٦.

٢٥- غازي القصيبي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص٦٦٧

٢٦- ينظر في ذلك: عمر المفدي، علم النفس المراحل العمرية، النمو من الحمل إلى الشيخوخة والهرم، ص ٤٦١، وكذلك: عبد الحميد الهاشمي، علم النفس التكويني أسسه وتطبيقه، ص ٣٥٩.

تقدم به السن[٢٧]:

إليك عظيم العفــو أشكو مواجعي

بدمع على مرأى الخلائق لا يجري

ترحل إخــواني فأصبحــت بعدهم

غريباً يتيم الروح، والقلب، والفكر

لقد كانت أحاسيس الحزن والفقد التي عاش الشاعر أحداثها، سبباً رئيساً في اشتداد وطأة الزمن وقسوته عليه، فجعلت في نفسه مرتعاً خصباً لجيوش الهموم والأحزان، ليعكس ذلك إحساسه القاتل بالوحدة والغربة النفسية والاجتماعية، فها هو ذا يودع أخته «حياة» في موسم من مواسمه الحزينة فنرى الوحشة تعتريه، والوحدة تحاصره، والهموم تهجم عليه وهو يقبل جبينها البارد في لحظات الوداع الأخيرة[٢٨].

أختاه وجهك بارد

وأنا أقبله وتلسعني الدموع

ويرجع الطفل المبعثر في السنين

يعانق الكهل اليتيم

نمشي أنا والطفل، أبحث عن

صباى.. وعن صباك..

فلا أرى غير الهشيم

٢٧- غازي القصيبي، ديوان حديقة الغروب، العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٦٦.
٢٨- السابق نفسه: ص٣٦.

.. وأنا أدبّ على عصا التذكار

مسلوب الشباب

فمن يرد الروح في الكهل السقيم؟

وأنا أحسُّ برودة الأشياء..

في قلبي..

أحس برودة النصل المغلغل في الصميم

يتفرق الأحباب

ترحل نشوة الأطياب

يخبو سامر الأصحاب

أحتضن الوجوم وأغمس

الأقلام في الدمع المجمد

أكتب الشعر العقيم.

إن معدل الكثافة الأسلوبية واللغوية في هذا النص، يؤكد أن الجو النفسي السائد فيه، هو جو الفقد والإحساس بالوحدة والغربة فقد عبر عن وحدته بعد فراق أخته باليتيم: (الكهل اليتيم) وهي دالة تستدعي في الذهن معاني عدة منها الوحدة، الغربة النفسية والاجتماعية، الحاجة للآخر، الحاجة للعطف والحنان..

إن هذا اليتم خلف كهلاً سقيماً، يدب متثاقلاً على عصا التذكار (مسلوب الشباب) ليؤكد الشاعر بأن ذلك الإحساس القاتل بالوحدة، قد خلفته تلك

المواسم الحزينة، فسلبت شبابه منه قسراً.

وتأتي تلك الجمل الفعلية المتتالية:

[يتفرق الأحباب ترحل نشوة الأطياب - يخبو سامر الأصحاب].

لتؤكد إحساسه القاسي بالوحدة، فقوافل الراحلين عن حياته تترى، يودعهم واحداً بعد الآخر، وتبعث تلك الجمل المتتابعة الرتيبة جواً موسيقياً يوحي بجو الفقد اليومي في حياة الشاعر لمن حوله، إذا أصبح الفراق روتيناً يومياً مملاً.

وقد أعقب تلك الجمل الفعلية المتتالية بجمل تجسد حالته النفسية التي تتلبسه في ذلك الجو الروتيني المشحون بالحزن واليتم، [أحتضن الوجوم، وأغمس الأقلام في الدمع المجمد، أكتب الشعر العقيم..].

وتسري تلك البرودة من جبين أخته المتوفاة إلى جسده المنهك وقلبه المكلوم، فتعكس لنا معاناته القاسية مع الوحدة والغربة، فحياته باردة لا طعم فيها، برودة تصل إلى حد الجمود والعجز عن القيام بأي عمل مثمر: [أكتب الشعر العقيم..].

وهذا هو حال الذي تدور به عجلة الزمن، فتتكالب عليه أوجاع الشيخوخة، وهموم الوحدة.

ويتجلى هذا الإحساس المؤلم بالوحدة عند رثائه لشقيقه عادل[٢٩].

أخـي لسـت أدري أي سهمـيّ قاتلي

غـيابـك.. أم أني بقيت هنـا فـردا

تفـرق أصحـاب الطريق.. فـلا أرى

أمامي سوى اللحد الذي يحضن اللحدا!

٢٩- غازي القصيبي، ديوان حديقة الغروب: ص٤٨.

هذا حاله يقف وحيداً، تعتريه الوحشة، ويتملكه هاجس الموت، فهو لا يرى معه أحياء بل قوافل أموات: [فلا أرى أمامي] وتحمل كلمة [أمامي] دلالة شعورية توحي بأن الشاعر يعيش حاضراً محاصراً بالوحدة، ومستقبلاً تسيطر عليه فكرة الموت، فهو لا يرى أمامه [سوى اللحد الذي يحضن اللحد]، قبور على مد البصر، يضم بعضها بعضاً، دلالة على كثرتها وتقاربها زمانياً ومكانياً.

ويتوجه الشاعر بشكواه من جور السنين إلى أمه البحرين التي قضى فيها طفولته، يبثها همومه وأشجانه، وقد جاء إليها خالي الوفاض من كل شيء، نضب ماء الحياة في داخله، فصار قلبه وحيداً مهجورا[٣٠]:

لم يبق في العمر شيء.. غير ماضيه
ردي إليّ الصبا الريان.. رديه !
بحرين! كان الشباب الحلو ثالثنا
واليوم ثالثنا شيب أواريه
وكان شعري بحراً.. في تدفقه
فصار شعري صخراً.. في تأبيّه
أين الجميلات؟! كان القلب مزدحماً
بهنّ.. يرقصن رقصاً في نواحيه
واليوم.. أحنو على قلبي.. وأحسبه
وكر العناكب.. تبني بيتها فيه
وأين رنة عودٍ داعبت قمراً
فخرّ في الكأس يسقينا ونسقيه؟
وأين غاب رفاقي بين مرتحلٍ
بلا لقاء.. وحيٍ لا ألاقيه

٣٠- السابق نفسه: ص٥٣.

تنكشف الأبيات منذ المطلع عن ذات ظامئة متحسرة، فقدت كل مقومات الحياة الحاضرة، ومن أهم هذه المقومات الإحساس بالهدوء النفسي في ظل الأهل والأحباب، وبما أن الشاعر يشعر بالوحدة فقد استدعى صورة ذلك المجتمع العائلي الواسع في البحرين، الذي تفتحت عيناه عليه، إذ كان هناك بيت واحد يضم الأسرة كلها، حيث العشرات من الآباء والأبناء والأحفاد[٣١].. وكان ذلك البيت جزءا لا يتجزأ من طفولته، وقد اختزل ذلك التاريخ البهيج كله في لفظتي [الصبا - الشباب]، إذا وصفهما بـ [الريان، والحلو]؛ وهما دلالتان توحيان بالامتلاء والبهجة والرضا في حياة الشاعر.

ويتبع الشاعر هذه الصورة باستفهامات متتالية: [أين الجميلات ؟- أين رنة عود؟.. أين غاب رفاقي؟..]، وتفيد هذه الاستفهامات بعْد ما يُسأل عنه بعداً حسياً ومكانياً..

وقد اضطلعت صورة العناكب التي تبني بيتها في قلبه بتجسيد حالة الشاعر، إذ أصبح قلبه وكراً للعناكب، فالمعروف أن العناكب لا تبني بيتها إلا في البيت المهجور، فإذا بنته فإنه بيت ضعيف واهن يفتقد كل مقومات الحياة المطمئنة والسكن الدافىء، لما فيه من قتل وفتك. وانعدام للمودة بين أفراده[٣٢].

وقد جاءت قافيته المكسورة الموصولة بهاء لتشيع جواً موسيقياوتوحي بالأجواء النفسية التي يعيشها الشاعر؛ إذ نلمس فيها آهاته وانكساره وحسراته على حياته التي أجدبت، وبقي معها وحيداً رفيقه الشيب، الذي يذكره بشيخوخته ووحدته وغربته في كل حين.

٣١- ينظر: غازي القصيبي، المواسم، ص ٤٩ - ٥٢ - ٥٣.

٣٢- ينظر: عبدالله الشاوي، العنكبوت وخيوطها في القرآن الكريم، دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م، ص٩٣ وما بعدها وكذلك: ماهر الصوفي، آيات الله في ممالك الطير والنحل والنمل والحشرات، المكتبة العصرية، صيدا، ط١، ٢٠٠٨م- ١٤٢٩م، ص٢٩٥ وما بعدها.

لقد كان شاعرنا يستشعر غربته، ويحس بالألم والجزع من رحيل أحبته، وكلما تقدم في السن زاد هذا الإحساس عمقاً وألماً، فها هو ذا في الخامسة والستين، يكابد عيشاً بائساً مملاً[٣٣].

خمس وستون في أجفان إعصار. أما سمئت ارتحالاً أيها الساري؟.
أما مللت من الأسفار ما هدأت. إلا وألقتك في وعثاء أسفار؟.
أما تعبت من الأعداء.. ما برحوا. يحاورونك بالكبريت والنار.
والصحب؟أين رفاق العمر؟هل بقيت. سوى ثمالة أيام.. وتذكار.

لقد فقد الشاعر تماسكه، وأصابه السأم، بعد أن رأى أحبابه وأصحابه يرحلون بلا عودة، لم يبق منهم سوى ذكريات، ووجد نفسه وحيداً قد امتد به العمر: (خمس وستون) يتلقى ضربات العواصف والأعاصير من كل اتجاه، يحاصره الظلام ويكتنفه الملل، فتحول إحساسه بالوحدة والغربة مع وطأة الزمن القاسية، وسطوة المرض القاتلة - إلى إحساس بقرب النهاية، والرحيل إلى الشاطيء الآخر، حيث أحبابه وأصحابه.. الراحلون[٣٤]:

وأنت يا بنت فجر في تنفسه. ما في الأنوثة من سحر وأسرار.
ماذا تريدين مني؟ إنني شبح. يهيم ما بين أغلال وأسوار.
هذي حديقة عمري في الغروب كما. رأيت مرعى خريفٍ جائع ضار.
الطير هاجر.. والأغصان شاحبة. والورد أطرق يبكي عهد آذار.
لا تتبعيني! دعيني! واقرئي كتبي. فبين أوراقها تلقاك أخباري.

بهذه المقابلة بين الشروق متمثلاً في كلمة الفجر، وبين الغروب، يجسد لنا

٣٣- غازي القصيبي، حديقة الغروب: ص١٣.
٣٤- السابق نفسه، ص١٦.

الشاعر حالته النفسية، وما يعتريه من إحساس بالوحدة والغربة في حالته الراهنة.

لقد نادى ابنته بـ: [يا بنت فجر]، إذ ترمز كلمة الفجر إلى الشباب والفتوة؛ فالفجر ينبثق منه الشروق، ويتبيّن فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود، إضافة إلى أن الفجر بداية النهار، وينبعث مع هذه البداية في النفس العطاء والنشاط والحيوية، وهذه الصفة من أهم صفات الشباب، وقد اختزل الشاعر حديثه عن الفجر في بيت واحد، ليعكس لنا إحساسه بماضيه الممتلىء حيوية وشباباً وعطاءً، وكيف مر سريعاً كلمح البصر.

أما الغروب فهو يرمز إلى الشيخوخة، ويؤذن بقرب النهاية، فهو نهاية اليوم، وهو الخط الفاصل بين إشراق النهار وظلام الليل.

لقد عبر غازي بالغروب عن شيخوخته، وما يعتريه من شعور بالوحدة والغربة والقلق، فقد نضب كل شيء في حياته وآذن بالرحيل فانعكس هذا الإحساس النفسي على أجواء القصيدة عامة، فجاءت ألفاظه تشع ظلالاً توحي بالنهاية: [ثمالة - اكتفيت - هاجر - شبح - شاحبة]، وصوره جاءت موحية بالجفاف والنضوب، فهو شبح لا يكاد يبين، تحاصره الأغلال والأسوار وحيداً تحت وطأة المرض، وحديقة عمره اليانعة في السابق، هاجرت طيورها، وشحبت أغصانها، وجفت ورودها، وأصبحت مرعى خريف جائع ضار..

لقد انتهى عهده، وتلاشى أثره، فلم يعد سوى كلمات مسطرة في كتب[٣٥]:

لا تتبعينـي دعينـي، واقرئي كتبي

فبين أوراقهـا تلقاكِ أخبـاري

ومن الطرافة أن الشاعر وجه نداءه إلى ابنته لتشاركه إحساسه بوطأة الزمن،

٣٥- السابق نفسه، ص١٦.

وقسوة الشيخوخة على جسده المنهك، لتشهد معه غروب حديقته وأفول نجمها، وربما يكون السبب أنها في السابق قد وقفت معه موقفاً حازماً رافضاً لشيخوخته عندما كان على أعتاب الأربعين، فراحت تقطف الشعرات البيض من حديقته في ذلك الوقت لإخفائها عن الأنظار[٣٦]:

مالت على الشعرات البيض تقطفها

ياراا تضحك لا أرضى لك الكبرا

لقد كانت الذكرى السنوية لمولد الشاعر كفيلة بأن تفجر في نفسه القلق، وتثير كوامن إحساسه بالغربة والوحدة[٣٧].

ماذا تريد من السبعين.. يا رجل ؟!
لا أنـت أنـت.. ولا أيـامـك الأول
جاءتك حاسـرة الأنيـاب.. كالحة
كـأنمـا هـي وجـه سـلّه الأجـل
أواه سيدتـي السبعـون معـذرة
إذا التقينا ولم يعصف بي الجذل
قد كنت أحسـب أن الدهر منقطع
وأننـي قبـل لـقيـانـا سـأرتحـل
أواه سيدتـي السبعـون معـذرة؟
بـأي شيء مـن الأشـيـاء نحتفـلُ
أبالشبـاب الـذي شابـت حدائقه
أم بالأماني التي باليأس تشتعل؟

٣٦- غازي القصيبي، الأعمال الشعرية الكاملة: ص ٦٩٥.
٣٧- غازي القصيبي، قصيدة، الشبكة العنكبوتية، موقع منتديات ترانيم الأمل،
http: / / www.Tran33m.com / vb / t43623.html

أم بالحيـاة التـي ولَّـت نضارتهـا؟
أم بالعزيمة أصمت قلبها العلل؟
أم بالرفـاق الأحبـاء الألى ذهبـوا
وخلفوني لعيشٍ أنسه مـلل؟

بهذا الاستفهام الإنكاري ينفتح المشهد على منظر رجلٍ يائس متهالك، تحيط به أسوار الوحدة، وتسيطر عليه فكرة الرحيل، وقد أكد هذه الفكرة بنداء أتبعه بمنادى نكرة مقصودة: (رجل) على سبيل التحسر؛ ليؤكد أنه لم يبق منه سوى أنقاض رجل متهالك خائر القوى، وتأتي بنية النفي تؤازرها بنية التأكيد [لا أنت أنت]، [ولا أيامك الأول]، لتكشف لنا احتدام أزمة الذات وإحساسها بالألم واليأس والسأم وقد فقدت تماسكها، وتبعثرت قوتها جراء وطأة الزمن، فهو يعيش مرحلة الشيخوخة التي طالما أقلقته في شبابه، وقد أسلمها قياده، فغيرت أحواله، وبدَّلت أيامه..

ويكشف الخطاب الشعري عن تأزم وتوتر العلاقة بين الذات والزمن، وانعدام التواصل، والصراع الحاد بينهما، مما منعه من الاحتفال بيوم مولده في عامه السبعين.

لقد جاءت السبعون مدججة بالسلاح، مكشّرة عن أنيابها، مكفهرة الوجه، يلوح الموت من وجهها العابس، وكأنها وحش كاسر هجم عليه ليلتهمه[٣٨].

جاءتك حاسرة الأنياب.. كالحة كأنّما هي وجه سلّه الأجل

لقد تمخَّضت هذه الصورة البشعة للسبعين من عمره، نتيجة لما أحدثه تقدمه في السن من آثار، فلقد أصبح غير قادر على ممارسة دوره الفاعل في الحياة: [أم بالعزيمة أصمت قلبها العلل]..، وحوصر مكانياً بأسوار المشفى، ونفسياً بآثار

٣٨- السابق نفسه من هذا البحث.

الشيخوخة والمرض والوحدة.. فأصبح مسلوب الإرادة في هذا الجو المفعم بالجفاف، مما يجعله يرفع صوته متفجعاً من كثرة ألمه وشدته [أواه] ويكرر هذا التفجّع متبعاً إياه بقوله: [سيدتي السبعون معذرة] ليؤكد أنه قد اتخذ منها هذا الموقف السلبي المأساوي نتيجة لما أحدثته فيه من تغيير سلبه إرادته، وجعله يقبع وحيداً غريباً عاجزاً.. رفيقه الملل واليأس والعلل.

لقد اتكأ الشاعر على حشد الصور التي تكتنز بدلالتها الرمزية والنفسية، ليجسد لنا هول ما يلاقيه في غربته من وطأة الزمن الذي جعله أسيراً يكابد أهوال الشيخوخة والوحدة، ومن أمثلة ذلك: صورة الدرب المنقطع بما تحمله من دلالات اليأس والإحساس بقرب النهاية، وصورة الأماني المشتعلة باليأس بما تشيعه من دلالات الحرقة والألم المستمرة في داخله، وصورة العزيمة التي أصمت قلبها العلل بما ترسمه من دلالات العجز والقسوة والمرارة.

وهكذا نلحظ عمق المأساة التي كان يعيشها غازي القصيبي نتيجة لتقدمه في السن، مما جعل الزمن عنده يتخذ بعداً مأساوياً يشيع أجواءً من الغربة والفقد والإحساس بالوحدة الذي وصل إلى حد اليأس والاستسلام للموت كلما تقدم به السن.

المبحث الثالث

الهروب النفسي:

غازي القصيبي شاعر رومانسي.. مسكون بأحوال النفس الإنسانية المدثرة بالأمل والأسى[٣٩] يطلق لعاطفته العنان، ويسترسل معها، ويهرب من وطأة الحياة المادية على روحه، ويعيش ويتمتع في دنيا خاصة من صنع خياله، ويأوي إلى

٣٩- اصدارات الجزيرة الثقافية، الاستثناء - غازي القصيبي - شهادات ودراسات، مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م: ص١١٨، ص١٣٥٤.

الطبيعة كأم حانية فيناجيها ويتغنى بجمالها[٤٠]، هارباً من واقعه المرير الذي يعيشه إلى ذكريات الماضي الزاهر[٤١].

لقد سعى غازي القصيبي جاهداً إلى الفكاك من أسر الزمن القاسي، الذي أفقده الإحساس بجمال الحياة من حوله، وأسلمه للقلق والإحساس بالوحدة، وذلك عن طريق الهروب النفسي الذي تجلى واضحاً في تجربته الشعرية في نزوعه للماضي المشرق، واستدعاء المكان القديم.

١ – النزوع للماضي المشرق:

إن الشاعر في صراعه مع زمن الشيخوخة الذي أقض مضجعه لا يجد مرفأً آمناً يأوي إليه إلا زمن الطفولة، بما يحمله من زمن ما ضوي جميل يشرق بالوداعة والبراءة والبهجة والحبور[٤٢]:

نفر فديتك: نحو الطفولة

لو ساعتين

فنأكل في الشمس تفاحتين

وألقي عليكِ بفزورتن.

ونغرق.. نغرق في ضحكتين

وهاتي من الرف سيارتين

ستغلب سيارتي في السباق

٤٠- ينظر: د. عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م: ص ٢٤٨.

٤١- ينظر: مصطفى عبد اللطيف السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، تهامة، جدة ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م: ص ٢١٤.

٤٢- غازي القصيبي، الأعمال الشعرية الكاملة: ص ٥٠٧.

بطرفة عين.

وهاتي الدُّمى.. سوف نختار

من بينها طفلتين

ونبني من الرمل أرجوحتين

ونغرق نغرق في ضحكتين

نفر فديتك!- من عبث الدهر بالوجنتين

وما يفعل الشيب بالمفرقين

ومن كل قلبٍ

يمزقه الحقد بالمخلبين

نفر فديتك نحو الطفولة

نرضع من ثديها رضعتين

ونغرق نغرق في ضحكتين

ينفتح النص في بدايته على مشهد نلمح فيه الذات تقبع في سجنٍ محكم الأسوار، وثم طرف آخر جاء لزيارة هذا السجين، وتكشف لغة النص أن هذا الطرف الآخر امرأة حبيبة إلى قلبه، بدليل أنه أخذ يبوح لها بسره ويستأمنها عليه، ويطلب منها أن تشاركه في تنفيذه.

ويأتي الفعل [نفرُّ] في افتتاح النص ليؤكد أن الذات قد مرت في خلوة سجنها بمراحل من التفكير والتخطيط واتخاذ القرار القاطع الذي جاء في العنوان

وفي بداية النص بدون مقدمات، وهذا القرار هو الانعتاق من ذلك السجن الذي يحاصر الذات بالهروب، ويؤكد أيضاً أن الحكم الذي صدر بحق الذات في سجنها حكم مؤبد لا يمكن أن يسقط عنها بأي حال من الأحوال، لذا اختارت الهروب للانعتاق منه.

ولكن أي سجنٍ هذا؟! وإلى أين ستكون وجهة الهروب ؟!! تأتي جملة: [نحو الطفولة]، لتؤكد أن السجن الذي يحاصر الذات إنما هو سجن الزمن، وأن الهروب سيكون من دائرة زمنية هي الشيخوخة إلى دائرة زمنية أخرى هي الطفولة.

ويجسد الشاعر لنا حالة الذات في سجنها، وما تعانيه من قهر، وانتهاك للحقوق داخل أسوار ذلك السجن الذي عبث بها نفسياً وجسدياً، ويظهر ذلك التعذيب الجسدي في: [عبث الدهر بالوجنتين، وما يفعل الشيب بالمفرقين، ..].

أما التعذيب النفسي فيمكن أن نستشفه من تلك اللازمة التي كررها الشاعر في النص: [ونغرق.. نغرق في ضحكتين]، إذ تكشف هذه اللازمة بدلالتها وتكرارها إلى حاجة الذات الظامئة إلى الفرحة والسرور والأنس الذي يجسده فعل الضحك. بعد أن أسلمتها الشيخوخة للقلق والوحدة والضعف والفتور إن الذات لا تريد أن تضحك فقط، وإنما تريد أن تغرق في بحر من الضحك، وهذا يكشف شدة ما تعانيه الذات من أسى وحزن ولهفة وشوق وظمأ للضحك، وهذا واحد من الحقوق التي بخلت عليه بها الشيخوخة في سجنها الكئيب.

ولكن لماذا اختار الشاعر زمن الطفولة للهروب إليه ولم يختر زمن الشباب كما جرت العادة عليه عند الشعراء الذين وخط الشيب مفارقهم؟ قد يكون اختياره لهذا الزمن لسببين:

١- زمن الطفولة بعيد جداً عن زمن الشيخوخة، أما زمن الشباب فهو حديث عهد بالشيخوخة، والذات ترغب في الانعتاق من زمن الشيخوخة، وتريد الهرب بعيداً جداً عن أسوارها.

٢- زمن الطفولة لا يمكن أن تعبث يد الدهر بملامحه الطفولية، إضافة إلى أنه زمن الانطلاق والحيوية والحركة والبراءة والعفوية، والمشاركة مع الآخرين في اللعب، والتفاعل الوجداني الجماعي بين أفراده، و تجسد هذه المعاني الأفعال التي تدل على الجمعية والمشاركة:

[نأكل - نغرق - ألقي عليك - نختار - نبني - نرضع -..] وهذه الأمور تفتقدها الذات، وتحنّ إليها في سجن الشيخوخة، إذ يحاصرها القلق والوحدة والغربة والضعف والفتور..

ولكن الشاعر في هذه الرحلة النفسية الحالمة يربط نفسه بدالة زمنية محددة [ساعتين]، وهو بهذه الدالة يربط نفسه بالواقع الذي لا مفر منه، ويشير إلى قناعة الذات بصعوبة تنفيذ ما اتخذته من قرار بالهروب والفكاك من سجن الزمن.

ومن مظاهر الهروب النفسي التي تمخضت عن صراع الشاعر مع الزمن، حنينه لأيام الصبا والشباب[٤٣].

بــرزت في عامــي الستــين تغويني
يا نشوة العيش يا أحلى الشياطين
إذا شكــوت مــن الإعيــاء أيقظني
شوق إلى الشوق يدعوني فيحييني
وإن تململت مــن ضعفي أطل هوى
غض الشباب إلى العشرين يلويني

٤٣- غازي القصيبي، قصيدة في عامي الستين، ينظر هامش رقم " ٢٠ "، من هذا البحث.

هــذه المغامــرة الحسنــاء أعشقهــا

برغم ما أغمدت بي من سكاكيني

ويرتمي الشاعر في أحضان الحب والعشق، كلما أحس أن زمن الشيخوخة يهصر روحه، ويبلي جسده، رغبة منه في إقناع نفسه، وإشعار الآخرين بأنه ما زال شاباً قادراً على العطاء؛ ويؤكد هذا الأمر في كثير من تجاربه، فمع تقدمه في العمر إلا أن قلبه لا يزال يتسع لكل شقراء وسمراء[٤٤]:

خمسون دبت إلى الفودين فاشتعلا

واحرقة الرأس فيه الشيب والصلع

وأنــت مــا زلــت طفــلاً في مباذله

فأين منك الوقار الحلو والــورع

مــا رفرفــت نظــرة إلا وعاجلهــا

شوق يمـزق أضـلاعـاً.. ويقتلـع

لــكل شقــراء أو سمــراء متسـع

فيا لقلبك!.. ما يحوي.. وما يَسَعُ

ولكن صورة المرأة في شعره - وهو في مخالب الشيخوخة - لم تكن مرتبطة بتكوينها الجسدي المادي، ولكنه يجسدها في صور إيحائية ترمز للشباب في بكوره وإشراقه وفتوته وتجدده[٤٥]:

وأشرق وجهك

أبصرته ألف وجه ووجه

٤٤- غازي القصيبي، ديوان عقد من الحجارة، ص ٢٦ - ٢٧.

٤٥- غازي القصيبي، ديوان ورود على ضفائر سناء، ص٢٢.

وفي كل وجه

كروم - غدير

وحلم يضوع

وجسدها كذلك في صور رامزة للحياة بما فيها من ربيع غض مثمر خصيب، وما فيها من سعادة وحبور وانطلاق وأمل[٤٦]:

كانت تغني والمساء حولها

أرجوحة من الغزل

والبحر بدر وقبل

وكنت في مخالب الخمسين..

أرنو لإبنه العشرين

والروح قنوط.. وأمل

تحبني؟ هذا كثير.

ربما ؟ ! لعل ؟!

كانت تغني الشوق والليل

الخليجي.. وفلاّ حين مسَّها اشتعل

كانت تفيض بالحياة..

قطرة.. فقطرة

٤٦- غازي القصيبي، ديوان عقد من الحجارة، ص١٢ - ٢٣.

ونظرة.. فنظرة

وضحكة.. فضحكة

بلا كلل

إذاً بهذه الصور الإيحائية الرامزة، التي تفيض بالحيوية والإشراق، وتنطلق منها أصوات الغناء والطرب، وتعبق فيها رائحة الفل والزهور، ويشرق في نواحيها الحبور والنور، يجسد لنا الشاعر ما يفتقده في شيخوخته، ويطلبه في محبوبته، بعد أن أصابه القلق والفتور والإعياء والملل. إنه بهروبه لأحضان المرأة لم يكن يطلب لذة جسدية مادية، وإنما يطلب الاطمئنان النفسي، والهدوء الروحي، ويبحث عن الأمل والحياة[٤٧].

وعشت السعادة

أحسست بالصخر يرشح بالماء

بالعود يخضر

بالقلب ينبض بعد سنين الهجوع

إن تشبثه بأيام الشباب عن طريق الحب والمرأة، جعل الحياة تدبّ في قلبه، والربيع يورق ويخضر في صحرائه القاحلة، إن انبجاس الماء من الصخر مرتبط بالمعجزات الإلهية التي خص الله - عز وجل - بها أنبياءه، لذا فإن تصويره للأثر النفسي الذي أحدثته المرأة في سنينه العجاف بقوله: [الصخر يرشح بالماء، العود يخضرّ..] ؛ يجسد مقدار اليأس الذي وصلت إليه حاله جراء وطأة الزمن عليه، وأن ما حل به كان معجزة خُصَّ بها، نقلته من زمن الجدب والجفاف إلى زمن الخصوبة والإثمار.

٤٧- غازي القصيبي، ديوان ورود على ضفائر سناء، ص ٢٢.

لقد تحقق له الانتشاء الروحي الذي انعكس على جسده بأكمله[٤٨].

وكنت في الليل الخليجي أحس أنني

أخرج من عباءة الإعياء والفتور والملل

وأرتمي بين يديها

موجة من الجذل

تحشد لنا هذه اللوحة صورة رجل منهك يائس يقبع وحيداً في ظلمة الشيخوخة التي رمز لها بـ[الليل]، وقد تدثر بمظاهر الشيخوخة من يأس ووحدة وقلق وإعياء وفتور، ولكنه انتفض عندما أحس بذلك الانتشاء الروحي ينسرب في نفسه وقلبه، وانسلخ من تلك المظاهر وكأنها [عباءة] خلعها، وتخلص منها.

وقد أسهم الإيقاع الموسيقي المواكب لهذه الصورة في إشاعة جو الفرح والطرب والنشاط والحيوية إذ جاءت أسطره الشعرية على بحر الرجز، و تكرار تفعيلات هذا البحر بسرعة عند النطق بها يشيع جواً من الطرب يعكس حالة النفس الفرحة المسرورة التي هبت تتراقص طرباً.

٢– استدعاء المكان القديم:

للمكان أهمية كبرى في تجارب الشعراء الإبداعية، إذ هو انفتاح للنفس على مشاعر وجدانية متنوعة، يستدعيها الشاعر بذكريات ذلك المكان[٤٩].

وقد وظف القصيبي المكان وذكرياته توظيفاً وجدانياً في أزمته النفسية المتصلة بتقدم عمره؛ إذ نلحظ حنينه إلى الطفولة وإلى الأماكن القديمة[٥٠]، رغبة منه في

٤٨– غازي القصيبي، ديوان عقد من الحجارة: ص١٣.

٤٩– ينظر: فتحية كحلوش، بلاغة المكان قراءة في مكانية النص الشعري، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٤١.

٥٠– ينظر: غازي القصيبي، سيرة شعرية: ص١١٩، وكذلك غازي القصيبي، المواسم: ص ٥٠ وما بعدها.

التخلص من أسوار الزمن الحالي، والارتداد إلى زمن جميل أثير لديه.

وبما أنّ «البحرين» هي مهد طفولته، الحافلة بالذكريات الجميلة، فقد عاد إليها الشاعر متلهفاً للقائها، لتنقذه من قوة الزمن وحصاره[٥١]:

عدت «بحرين» لا الفؤاد فؤاد. مثل أمسٍ ولا الحنين حنين.
عدت والشيب بارق عبر فودي. وعلى مقلتي غيم هتون.
وسميراي حرقتي والقوافي. وندياي غربتي والشجون.
ألبستني ثوب الغبار الصحاري. فأنا فيه لا أكاد أبين.

عاد إلى «البحرين» بحرقة الشوق، ليرتمي في أحضانها، ويتخلص من قيود الزمن التي غيرت ملامحه، وعبثت بتفاصيله، ولكن أصابه الذعر وتلقى صدمة نفسية أخرى، زادت همومه وأوجاعه، فالأجواء الحزينة اليائسة تلف المكان، والمشاهد العابسة البائسة تتلقفها الأبصار، وأصوات العويل والبكاء تنبعث من أرجاء المكان وزواياه[٥٢]:

كان يغفو في أذرع البحربيتي. حوله الماء رقصة ولحون.
كنت أصحو والجزر خل وفيّ. كنت أغفو والمد جار أمين.
والأماسي على الضفاف نعيم. والهواري لهو وصيد ثمين.
زرته اليوم فانثنيتُ وقلبي. يتلوى كأنه المطعون.

عندما تقتل الحضارة بحراً. يعول الصمت والفراغ الحزين.
وتلف البحار موجة يأس. وعلى الماء ينقش التأبين.

٥١- غازي القصيبي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٦٨٢.
٥٢- السابق نفسه، ص٦٨٣ - ٦٨٤.

وتظل النوارس البيض تبكي. ضائعات ويجهش الدلفين.

وتتوحد الذات مع المكان، فنرى في صورة البحر الذي اغتالته يد الزمن صورة أخرى للذات بأوجاعها وآلامها وهمومها وشكواها[٥٣]:

يا خليجي القديم!إنك مثلي. عاقبتني وعاقبتك السنون.

لقد أوشكت الذات أن تفقد تماسكها بعد إدراكها لذلك الواقع المرير، ولكنها ارتدت إلى مكانها الأثير بعبق الذكريات الجميلة، فراحت تفتش عن طفولتها وصباها هناك[٥٤]:

رحت في فرضة المنامة أمشي. فطوتني في ذكرياتي السفين.
أين جالبوتنا.. شراع قديم. يتحدى الهوى وقلع متين.
أين مني الحداق..؟ أين ميادير. وأين الربيان أين العجين.
أين مني الغروب ينزف شعراً. فعلى الأفق من دماه فنون؟.
ورجوعي والليل شيخ وقور. طلعة حلوة وقلب حنون.
آه يا بحر! أنت في قاع روحي. وأنا فيك سندباد سجين.

وتستمر الذات في استدعاء الذكريات الجميلة في ذلك المكان، تنبشها نبشاً، وتفتش عن تفاصيلها، فتلك الذكريات بمثابة حياة جديدة تنبعث في نفس الشاعر لتنقذه من قسوة الزمن وحصاره[٥٥]:

غبت في الحي أنبش الأمس نبشا. وهو في عالم الضباب رهين.

٥٣- السابق نفسه، ص٦٨٤.
٥٤- السابق نفسه، : ص ٦٨٤ - ٦٨٥.
٥٥- السابق نفسه، : ص٦٨٦.

ويستدعي الفعل: [غبت] في الذهن صورة لحياة الشاعر في طفولته، صورة حافلة بالأحداث، مزدحمة بالأشخاص، ممتلئة بالحياة، حياة على النقيض من حياته الحالية التي يلفها القلق والشعور بالوحدة والغربة.

وتوحي الألفاظ: [أنبش، الضباب]، بقدم عهد الشاعر بهذه الذكريات، وطول المسافة الزمنية التي تفصل الذات عن طفولتها.

هرب الشاعر إلى الحي الذي عاش فيه طفولته مع أقرانه، بعد أن رأى ما أحدثه الزمن على بحره وبيته، فتراءى له ملعبه وأحلام طفولته وصباه، وقد تغير كل ذلك[٥٦].

أين ذاك البقَّال بسر ولوز. وحمار محنَّط مسكين؟.
أين ذاك السقَّاء نجري ونشدو. خلفه والزقاق ماء وطين؟.
أين سالمين والعصا وبخور؟. أرعب الحي كله سالمين.
أين ذاك الضجيج في لعبة الصرقيع. يعلو والقب والقلين.
أين ناملينا يطيش ويغضي. فهو كالدهر ثورة وسكون.
أين نبت غَضٌّ على السّيف يلقى. كل عيد وأين «قرقاعون"؟.
غيرت لمسة التطور حيي. فهو شكل ضخم ولا مضمون.

ومع أن هذه الاستفهامات المتتالية المتلهفة تحمل في طياتها الحسرة والألم على ما حل بحي الطفولة، إلا أنها رسمت لنا صورة حية لزمن الذات الأثير، زمن الطفولة الممتلىء حيوية وجمالاً وبراءة وانطلاقاً وأمالاً وصفاءً.. وهو زمن تفتقده الذات في شيخوختها وتحاول الهروب إليه والتنقيب عنه، ليخلصها من وضعها الراهن، فهي ذكريات جميلة محملة بطاقات نفسية هائلة قادرة على بث

٥٦- السابق نفسه، ص ٦٨٦ - ٦٨٧.

الحياة فيها من جديد.

وعندما يعود الشاعر إلى البحرين مهد طفولته فإنه يلتصق بها نشأة ونسباً، ويتماهي معها لدرجة نحس فيها أن أحدهما يفنى في الآخر[٥٧].

بحرين هذا أوان الوصل فانسكبي. عليّ بحرين من در ومن رطب.
تنفسي في شجوني وادخلي حرقي. واسترسلي في دمائي واسكني تعبي.
وسافري في عيوني يا معذبتي. بالهجر يا ظمئي المعطاء يا سغبي.
يا فرحتي ورياح اليأس غاضبة. يا نشوتي حين يذوي موسم العنب.
ياضحكتي والدموع الحمر تعصرني. يا واحتي وهجير القفر يعبث بي.
حملت وجهك في روحي وطرت به. على المحيطات عبر البرق والسحب.
أخلو إليه فتؤيني بشاشته. وأحتمي فيه من رعب ومن وصب.
بحرين يا دانتي العصماء هل حرج. إذا تأملت في عينيك عن كثب.
إذا ضممتك ضم البيد ظامئة. بشائر الوسم في عام من الجدب.
إذا أخذتك في الأحشاء من وله. إذا شربتك في الأضلاع من رغب؟.
إذا صرخت بما في العشق من ألم. وثبتُ نحوك مشبوب الدما فثبي.

يعود إليها حين يذوي موسم العنب، ويعبث به هجير القفر، ويضمها ضم البيد الظامئة لأمطار الوسم في عام أهلكه الجدب والجفاف، وهي صور ترمز لما آل إليه حاله في شيخوخته، وأنه جاء إليها هارباً من ذلك السجن طالباً الأمن في أحضانها[٥٨].

٥٧- السابق نفسه، ص ٨٠٧.
٥٨- السابق نفسه، ص ٨٠٩.

والشيب في لُمَّتي فجر بلا مرح. يطل فوق مساء خامد الشهب.
ضربت في الأرض حتى مل مضطربي. وطفت في البحر.. حتى ضج منقلبي.
وعدت طيراً جريحاً في ابتسامته. ما يملأ الكون من أشجان مغترب.

لم تعد «البحرين» في حياته حيزاً جغرافياً فقط، إنما هي الأم والحبيبة التي يستروح في أحضانها زمن الشباب الزاخر بالري والخصب والعطاء[٥٩]..

سمراء هل يرجع الماضي إذا رجعت
رؤاه تخطر بين القلب والهدب ؟
وهل يعود إذا عدنا له زمن
من البراءة.. منقوش على الحقب ؟
وهل أعود صبياً كله خجل
وهل تعودين بنتاً حلوة الشغب ؟
وهل يعود الهوى في بسمة لمعت
خطفاً.. وفي نظرة مرت ولم تؤب؟
.. بحرين هاتي أغاني البحر هامسة
فقد سئمت ضجيج المجد والنشب

وهكذا نلحظ أن الشاعر يعود إلى البحرين، محاولة منه للهروب النفسي من حاضره المؤلم، إلى ماضيه المشرق الجميل، يعود إليها مؤصلاً فكرة انتمائه إلى الأرض، فهي جزء منه وهو جزء منها، تضرب جذوره في أعماق أرضها، وكأنه بتأصيل هذه الفكرة يرفض فكرة الرحيل واليأس من الحياة.

٥٩- السابق نفسه، ص ٨١٠.

الخاتمــة

وبعد، فقد انتهى هذا البحث الموسوم بعنوان: (الشيخوخة والقلق في شعر غازي القصيبي)، الذي قمت فيه باستقراء شعر غازي القصيبي الذي تبرز فيه ظاهرة القلق من الشيخوخة، ومن ثمّ تحليلها، واستجلاء دلالاتها الموضوعية والفنية.

وقد توصّل هذا البحث إلى عدة نتائج منها:

١- الشاعر غازي القصيبي كان عميق الإحساس بالزمن، شديد القلق من تقدمه في السن، وقد شغلت هذه القضية حيزا كبيرا من إنتاجه الشعري.

٢- غازي القصيبي عالج هذه القضية في فنه الشعري، بعيدا عن النظرة المأساوية الناقمة، وقد استطاع أن يجسد لنا الأحاسيس المرافقة للشيخوخة، والانفعالات النفسية المصاحبة لها، في إطار تجربته الوجدانية.

٣- استطاع غازي القصيبي تجسيد تجربته، وإيصالها للمتلقي، والتأثير فيه، بصدق وعفوية، وقد سخر لذلك كل الوسائل التعبيرية والفنية والأسلوبية المتاحة.

٤- أثبت غازي القصيبي بتجسيد هذه التجربة في قوالب شعرية، أن الفن الشعري الأصيل قادر على حمل مايمور في قلب الشاعر من عواطف متباينة، وانفعالات ثائرة.

٥- تجربة الشاعر تحمل بين طيّاتها كثيرا من ملامح الرومانسية.

المراجع

١- إصدارات الجزيرة الثقافية، الاستثناء، غازي القصيبي: شهادات ودراسات، مؤسسة الجزيرة، للصحافة والنشر، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م.

٢- روبرت أل - ليهي، علاج القلق، ترجمة مكتبة جرير، الرياض، ط١، ٢٠٠٨م.

٣- عبد الحميد الهاشمي، علم النفس التكويني، أسسه من الولادة إالى الشيخوخة، دار الهدى، الرياض، ط٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ، ١٩٧٢م.

٥- عبدالله الجعثين، الهم والقلق وأفضل السبل للخلاص منهما، مرامر للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٦- عبدالله الشاوي، العنكبوت وخيوطها في القرآن الكريم، دار عمار، عمان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٧- عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثر، دار المطبعة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٨- غازي القصيبي، استجوابات، العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٩- غازي القصيبي، حديقة الغروب، العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٠-غازي القصيبي، عقد من الحجارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١١م.

١١-غازي القصيبي، المجموعة الشعرية الكاملة، تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

١٢-غازي القصيبي، المواسم، دامة للدراسات والنشر، جدة، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٣-غازي القصيبي، ورود على ضفائر سناء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.

١٤-فتحية كحلوش، بلاغة المكان قراءة في مكانية النص الشعري، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

١٥-فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، «د ت».

١٦-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: أنس الشامي، وزكريات أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٧-ماهر الصوفي، آيات الله في ممالك الطير والمحل والنمل والحشرات، المكتبة العصرية، صيدا، ط١، ٢٠٠٨م، ١٤٢٩هـ.

١٨-مؤسسة سجل العرب، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة إبراهيم أبو النجا وآخرون، ط١، ج٨، د ت.

١٩-محمد أحمد الدوغان، السيرة الشعرية لغازي القصيبي بين الرؤية والأداء، العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٠-مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٢١-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، مج ١٠، د ت.

٢٢-نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، معجم وسيط، دار الحضارة العربية، بيروت، ط١، د ت.

٢٣-يوسف مراد، مبادىء علم النفس العام، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٤٨م.

مراجع الشبكة العنكبوتية:

٢٤-موقع منتديات ترانيم الأمل: http://ww.tran33m.com/vb/t436230html

٢٥-موقع اليوتيوب: http://www.yoytup.com/watch?v=Gxgpamrlguk

Abstract

Aging and Anxiety in Ghazy Al Kouseby Poetry

Dr. Huda Bint Abdul Rahman Al-Dries

Thanks to Allah for his mercy, grace and prayer be upon our prophet Mohammed and his companions.

Gazi Abdul Rahman Al-Qusibi represents a part of the poetry movement in the Arab world, in its different stages and its multiple schools. Al-Qusibi is a committed poet, able to couple between his conscience and reality.

This study aims to highlight a part of his poetry (experience) that deals with the feelings of time burden, and anxiously of being old. From this study will try to examine his poetry from this side and to explore its technical and subjective denotation, and to understand the works of the poet experience and to substation itilities to the reader through works of entitled in: (senility and anxiety in Gazi Al-Qusibi poetry).

I beg to Almighty Allah is Mercy and Grace.